❁ ❁ ❁

تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية، وقيل: مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن فُلْفُل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة». فقرأ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، حتى ختمها، قال: «هل تدرون ما الكوثر؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هو نهر أعطانيه ربي، ﷻ، في الجنة، عليه خير كثير، تردُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يُخْتَلَج العبد منهم فأقول: يا رب، إنه من أمتي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياق. وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأن عليه آنية عدد نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، من طريق محمد بن فضيل، وعلي بن مُسْهِر، كلاهما عن المختار بن فُلْفُل، عن

أنس. ولفظ مسلم قال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي آنفاً سورة»، فقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾. ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وَعَدنيه ربي، ﷻ، عليه خير كثير، هو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلجُ العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك». وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها. فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة. وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أنس فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت، عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾. قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يُشق شقاً، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مسْكه ذَفِرة، وإذا حصاه اللؤلؤ». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر، حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أذفر. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، ﷻ». ورواه البخاري في صحيحه، ومسلم، من حديث شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيتُ على نهرٍ حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». وهذا لفظ البخاري، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا الربيع، أخبرنا ابن وهب، عن سليمان بن هلال، عن شريك بن أبي نمر، قال: سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال: لما أسري برسول الله ﷺ، مضى به جبريل في السماء الدنيا، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فذهب يشمّ تُرابه، فإذا هو مسك. قال: «يا جبريل، ما هذا النهر؟ قال: هو الكوثر الذي خبأ لك ربك». وقد تقدم في حديث الإسراء في سورة «سبحان»، من طريق شريك عن أنس عن النبي ﷺ. وهو مخرج في الصحيحين. وقال سعيد، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا أسير في الجنة إذ عَرَض لي نهر، حافتاه قباب اللؤلؤ مُجَوف، فقال الملك الذي معه: أتدري ما هذا؟ هذا الكوثر الذي أعطاك الله. وضرب بيده إلى أرضه، فأخرج من طينه المسك». وكذا رواه سليمان بن طِرْخان، ومعمر وهمام وغيرهم، عن قتادة، به. وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن أبي سُريج، حدثنا أبو أيوب العباسي، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثني محمد بن عبد الله، ابن أخي ابن شهاب، عن أبيه، عن أنس قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهر أعطانيه الله في الجنة، ترابه مسك، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجُزُر». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: «أكلها أنعم منها». وقال أحمد: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا الليث، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الوهاب، عن عبد الله بن مسلم بن شهاب، عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكوثر؟ قال: «نهر في الجنة أعطانيه ربي، لهو أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر». قال عمر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: «أكلها أنعم منها يا عمر». رواه ابن جرير، من حديث الزهري، عن أخيه عبد الله، عن أنس: أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فذكر مثله سواء. وقال البخاري: حدثنا خالد بن يزيد الكاهلي، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عائشة قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، قالت: نهر عظيم أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرّ مجوف، آنيته كعدد النجوم. ثم قال البخاري: رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرف، عن أبي إسحاق. ورواه أحمد والنسائي، من طريق مُطرّف، به. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن سفيان، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عائشة قالت: الكوثر نهر في الجنة، شاطئاه در مُجَوف. وقال إسرائيل: نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء. وحدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يعقوب القُمي، عن حفص بن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق أو مسروق قال: قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، حدثيني عن الكوثر. قالت: نهر في بطنان الجنة. قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه المسك، وحصباؤه اللؤلؤ والياقوت. وحدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن أبي جعفر الرازي، عن ابن أبي نجيح، عن عائشة قالت: من أحب أن يسمع خرير الكوثر، فلْيَجعل أصبعيه في أذنيه. وهذا منقطع بين ابن أبي نجيح وعائشة، وفي بعض الروايات: «عن رجل، عنها». ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك، لا أنه يسمعه نفسه، والله أعلم. قال السهيلي: ورواه الدارقطني مرفوعاً، من طريق مالك بن مِغْوَل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة، عن النبي ﷺ. ثم قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يَزْعُمون أنه نهر في الجنة؟ فقال

سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. ورواه أيضاً من حديث هُشَيم، عن أبي بشر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وقال الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحارب بن دِثَار، والحسن بن أبي الحسن البصري. حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة. وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عمر بن عبيد، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل. وروى العوفي، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هُشَيم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن محارب بن دِثار، عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل. وكذا رواه الترمذي عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء بن السائب، به مثله، موقوفاً. وقد روي مرفوعاً فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص، حدثنا ورقاء قال. . . . وقال عطاء بن السائب عن محارب بن دِثار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل». وهكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، به مرفوعاً. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَية، أخبرنا عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق، والله إنه للخير الكثير. ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾، قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، يجري على الدر والياقوت». وقال ابن جرير: حدثني ابن البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير، أخبرني حرام بن عثمان، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوماً فلم يجده، فسأل امرأته عنه ـ وكانت من بني النجار ـ فقالت: خرج يا نبي الله آنفاً عامداً نحوك، فأظنه أخطأك في بعض أزقة بني النجار، أوَ لا تدخلُ يا رسول الله؟ فدخل، فقدمت إليه حَيْساً، فأكل منه، فقالت: يا رسول الله، هنيئاً لك ومريئاً، لقد جئت وأنا أريد أن آتيك فأهنيك وأمْريك؛ أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر. فقال: «أجل، وعرضه ـ يعني أرضه ـ ياقوت ومرجان، وزبرجد ولؤلؤ». حرام بن عثمان ضعيف. ولكن هذا سياق حسن، وقد صح أصل هذا، بل قد تواتر من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض ولنذكرها ها هنا. وهكذا رُوي عن أنس، وأبي العالية، ومجاهد، وغير واحدٍ من السلف: أن الكوثر: نهر في الجنة. وقال عطاء: هو حوض في الجنة.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهرُ الذي تقدم صفته ـ فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: يعني بذلك نحر البُدْن ونحوها. وكذا قال قتادة، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، والربيع، وعطاء الخراساني، والحكم، وإسماعيل بن أبي خالد، وغير واحد من السلف. وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١]. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾: وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر. يُروى هذا عن علي، ولا يصح. وعن الشعبي مثله. وعن أبي جعفر الباقر: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ يعني: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة. وقيل: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: استقبل بنحرك القبلة. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً منكراً جداً فقال: حدثنا وهب بن إبراهيم الفامي ـ سنة خمس وخمسين ومائتين ـ حدثنا إسرائيل بن حاتم المروزي، حدثنا مقاتل بن حيان، عن الأصبغ بن نباتة، عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾، قال رسول الله: «يا جبريل، ما هذه النَّحيرة التي أمرنا بها ربي؟» فقال: ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة. وهكذا رواه الحاكم في المستدرك، من

حديث إسرائيل بن حاتم، به. وعن عطاء الخراساني: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل، وأبرز نحرك، يعني به الاعتدال. رواه ابن أبي حاتم. كل هذه الأقوال غريبة جداً. والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر ذبح المناسك؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه ويقول: «من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نسكتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: «شاتك شاة لحم». قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إليّ من شاتين، أفتجزىء عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزىء أحداً بعدك». قال أبو جعفر بن جرير: والصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفاء له، وخصك به. وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى: محمد بن كعب القرظي، وعطاء. وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي: إن مبغضك ـ يا محمد ـ ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكْرُه. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة: نزلت في العاص بن وائل. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة. وقال شَمِر بن عطية: نزلت في عقبة بن أبي مُعَيط. وقال ابن عباس أيضاً، وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش. وقال البزار: حدثنا زياد بن يحيى الحسَّاني، حدثنا ابن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾. هكذا رواه البزار، وهو إسناد صحيح. وعن عطاء: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُتِرَ محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾. وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وعنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يعني: عدوك. وهذا يعُمُّ جميعَ من اتصفَ بذلك ممن ذكر، وغيرهم. وقال عكرمة: الأبتر: الفرد. وقال السُّدِّي: كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا: بُتر. فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بتر محمد. فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾. وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

آخر تفسير سورة «الكوثر»، ولله الحمد والمنة

❁ ❁ ❁

(١٠٨) سورة الكوثر مكية
وآياتها ثلاث

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف : (إحداها) أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن فى السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة : (أولها) البخل وهو المراد من قوله (يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين) (الثانى) ترك الصلاة وهو المراد من قوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) (والثالث) المراءاة فى الصلاة هو المراد من قوله (الذين هم يراءون) (والرابع) المنع من الزكاة وهو المراد من قوله (ويمنعون الماعون) فذكر فى هذه السورة فى مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر فى مقابلة البخل قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك الكثير ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، وذكر فى مقابلة (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قوله (فصل) أى دم على الصلاة ، وذكر فى مقابلة (الذين هم يراءون) قوله (لربك) أى ائت بالصلاة لرضا ربك ، لا لمراءاة الناس ، وذكر فى مقابلة (ويمنعون الماعون) قوله (وانحر) وأراد به التصدق بلحم الأضاحى ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله (إن شانئك هو الأبتر) أى المنافق الذى يأتى بتلك الأفعال القبيحة المذكورة فى تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر ، وأما أنت فيبقى لك فى الدنيا الذكر الجميل ، وفى الآخرة الثواب الجزيل .

﴿ والوجه الثانى ﴾ فى لطائف هذه السورة أن السالكين إلى الله تعالى لهم ثلاث درجات : (أعلاها) أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم فى نور جلال الله (وثانيها) أن يكونوا مشتغلين بالطاعات والعبادات البدنية (وثالثها) أن يكونوا فى مقام منع النفس عن الانصباب إلى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة ، فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) إشارة إلى المقام الأول

وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الأرواح البشرية بالكم والكيف . أما بالكم فلأنها أكثر مقدمات ، وأما بالكيف فلأنها أسرع انتقالا من تلك المقدمات إلى النتائج من سائر الأرواح ، وأما قوله (فصل لربك) فهو إشارة إلى المرتبة الثانية ، وقوله (وانحر) إشارة إلى المرتبة الثالثة ، فإن منع النفس عن اللذات العاجلة جار مجرى النحر والذبح ، ثم قال (إن شانئك هو الأبتر) ومعناه أن النفس التى تدعوك إلى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة ، أنها دائرة فانية ، وإنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ، وهى السعادات الروحانية والمعارف الربانية التى هى باقية أبدية . ولنشرع الآن فى التفسير قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) اعلم أن فيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور . أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة (والضحى) فى مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر فى أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته (أولها) قوله (ماودعك ربك وماقلى) ، (وثانيها) قوله (وللآخرة خير لك من الأولى) (وثالثها) (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهى قوله (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى)

ثم ذكر فى سورة ألم نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء (أولها) (ألم نشرح لك صدرك) (وثانيها) (ووضعنا عنك وزرك ، الذى انقض ظهرك) ، (وثالثها) (ورفعنا لك ذكرك) ،

ثم إنه تعالى شرفه فى سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف (أولها) أنه أقسم ببلده وهو قوله (وهذا البلد الأمين) ، (وثانيها) أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله (إلا الذين آمنوا) ، (وثالثها) وصولهم إلى الثواب وهو قوله (فلهم أجر غير ممنون)

ثم شرفه فى سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات (أولها) (اقرأ باسم ربك) أى اقرأ القرآن على الحق مستعيناً باسم ربك (وثانيها) أنه قهر خصمه بقوله (فليدع ناديه سندع الزبانية) ، (وثالثها) أنه خصه بالقربة التامة وهو (واسجد واقترب) .

وشرفه فى سورة القدر بليلة القدر التى لها ثلاثة أنواع من الفضيلة (أولها) كونها (خيراً من ألف شهر) ، (وثانيها) نزول (الملائكة والروح فيها) (وثالثها) كونها (سلاماً حتى مطلع الفجر)

وشرفه فى سورة (لم يكن) بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات (أولها) أنهم (خير البرية) (وثانيها) أن (جزاؤهم عند ربهم جنات) ، (وثالثها) رضا الله عنهم ،

وشرفه فى سورة إذا زلزلت بثلاث تشريفات : (أولها) قوله (يومئذ تحدث أخبارها) وذلك يقتضى أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية (والثانى) قوله (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور ، (ثالثها) قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومعرفة الله لاشك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابها ثم شرفه فى سورة العاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف

تلك الخيل بصفات ثلاث (والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا .
ثم شرف أمته في سورة القارعة بأمور ثلاثة (أولها) فمن ثقلت موازينه (وثانيها) أنهم فى عيشة راضية (وثالثها) أنهم يرون أعداءهم فى نار حامية .
ثم شرفه فى سورة الهاكم بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه (أولها) أنهم يرون الجحيم (وثانيها) أنهم يرونها عين اليقين (وثالثها) أنهم يسألون عن النعيم
ثم شرف أمته فى سورة والعصر بأمور ثلاثة (أولها) الإيمان (إلا الذين آمنوا) ، (وثانيها) وعملوا الصالحات (وثالثها) إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة ، وهو التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ،
ثم شرفه فى سورة الهمزة بأن ذكر أن من همز ولمز ، فله ثلاثة أنواع من العذاب (أولها) أنه لا ينتفع بدنياه البتة ، وهو قوله (يحسب أن ماله أخلده كلا) (وثانيها) أنه ينبذ فى الحطمة ، (وثالثها) أنه يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء فى الخروج ، وهو قوله (إنها عليهم مؤصدة) .
ثم شرفه فى سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه فى نحرهم من ثلاثة أوجه (أولها) جعل كيدهم فى تضليل (وثانيها) أرسل عليهم طيرا أبابيل (وثالثها) جعلهم كعصف مأكول .
ثم شرفه فى سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه (أولها) جعلهم مؤتلفين متوافقين لإيلاف قريش (وثانيها) أطعمهم من جوع (وثالثها) أنه آمنهم من خوف .
وشرفه فى سورة الماعون ، بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة (أولها) الدناءة واللؤم ، وهو قوله (يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) (وثانيها) ترك تعظيم الخالق ، وهو قوله (عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون) (وثالثها) ترك انتفاع الخلق ، وهو قوله (ويمنعون الماعون) .

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه فى هذه السور من هذه الوجوه العظيمة ، قال بعدها (إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة فى السورة المتقدمة التى كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ، وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم ، أما عبادة الرب فإما بالنفس ، وهو قوله (فصل لربك) وإما بالمال ، وهو قوله (وانحر) وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم فى دينهم ودنياهم ، فهو قوله (يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل لما بعدها ، فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله (يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون) ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم ، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم فى نصرة أديانهم ، فلا جرم كان الطعن فى مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن ، فلما أمره بأن يكفر جميع أهل الدنيا ، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا فى غاية العداوة له ، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه ، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف

كان يخاف من فرعون وعسكره . وأما ههنا فإن محمداً عليه السلام لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا ، كان كل واحد من الخلق ، كفرعون بالنسبة إليه ، فدبر تعالى فى إزالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، وهو أنه قدم على تلك السورة ، هذه السورة فإن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه (أحدها) أن قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أى الخير الكثير فى الدنيا والدين ، فيكون ذلك وعداً من الله إياه بالنصرة والحفظ ، وهو كقوله (يا أيها النبى حسبك الله) وقوله (والله يعصمك من الناس) وقوله (إلا تنصروه فقد نصره الله) ومن كان الله تعالى ضامناً لحفظه ، فإنه لا يخشى أحداً (وثانيها) أنه تعالى لما قال (إنا أعطيناك الكوثر) وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة ، والخلف فى كلام الله تعالى محال ، فوجب فى حكمة الله تعالى إبقاؤه فى دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات ، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه ، ولا يقهرونه ، ولا يصل إليه مكرهم بل يصير أمره كل يوم فى الازدياد والقوة (وثالثها) أنه عليه السلام لما كفروا وزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان اجتمعوا عنده ، وقالوا إن كنت تفعل هذا طلباً للمال فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس ، وإن كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا ، وإن كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيساً على أنفسنا ، فقال الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) أى لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة ، فلا تغتر بما لهم ومراعاتهم (ورابعها) أن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد أن الله تعالى تكلم معه لا بواسطة ، فهذا يقوم مقام قوله (وكلم الله موسى تكليما) بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه فى غير هذا المعنى ، بل يفيد قوة فى القلب ويزيل الجبن عن النفس ، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله (إنا أعطيناك الكوثر) مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس ، فقدم هذه السورة على سورة (قل يا أيها الكافرون) حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفير جميع العالم ، وإظهار البراءة عن معبودهم فلما امتثلت أمرى ، فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة الأتباع والأشياع ، أن أهل الدنيا يدخلون فى دين الله أفواجا ، ثم إنه لما تم أمر الدعوة وإظهار الشريعة ، شرع فى بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن ، وذلك لأن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، أو يكون طالباً للآخرة ، أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهوان ، ثم يكون مصيره إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت ، وأما طالب الآخرة فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التى تنتقش فيها صور الموجودات ، وقد ثبت فى العلوم العقلية أن طريق الخلق فى معرفة الصانع على وجهين : منهم من عرف الصانع ، ثم توسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى ، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريق التى هى أشرف الطريقين ، فبدأ بذكر صفات

الله وشرح جلاله ، وهو سوره (قل هو الله أحد) ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته فى سورة (قل أعوذ برب الفلق) ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الإنسانية ، وعند ذلك ختم الكتاب ، وهذه الجملة إنما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل ، فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة المودعة فى كتابه الكريم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ فى قوله (إنا أعطيناك الكوثر) هى أن كلمة (إنا) تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم .

أما (الأول) فقد دل الدليل على أن الإله واحد ، فلا يمكن حمله على الجمع ، إلا إذا أريد أن هذه العطية مما سعى فى تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدمون ، حين سأل إبراهيم إرسالك ، فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال موسى : رب اجعلنى من أمة أحمد . وهو المراد من قوله (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) وبشر بك المسيح فى قوله (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وأما (الثانى) وهو أن يكون ذلك محمولا على التعظيم ، ففيه تنبيه على عظمة العطية لأن الواهب هو جبار السموات والأرض والموهوب منه ، هو المشار إليه بكاف الخطاب فى قوله تعالى (إنا أعطيناك) والهبة هى الشىء المسمى بالكوثر ، وهو ما يفيد المبالغة فى الكثرة ، ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب ، فيالها من نعمة ما أعظمها ، وما أجلها ، ويا له من تشريف ما أعلاه .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المهدى العظيم تصير عظيمة ، ولذلك فإن الملك العظيم إذا رمى تفاحة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يعد ذلك إكراماً عظيما ، لا لأن لذة الهدية فى نفسها ، بل لأن صدورها من المهدى العظيم يوجب كونها عظيمة ، فههنا الكوثر وإن كان فى نفسه فى غاية الكثرة ، لكنه بسبب صدوره من ملك الخلائق يزداد عظمة وكمالا .

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ أنه لما قال (أعطيناك) قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها ، وذلك لأن من مذهب أبى حنيفة أنه يجوز للأجنبى أن يسترجع موهوبه ، فإن أخذ عوضاً وإن قل لم يجز له ذلك الرجوع ، لأن من وهب شيئاً يساوى ألف دينار إنساناً ، ثم طلب منه مشطاً يساوى فلساً فأعطاه ، سقط حق الرجوع فههنا لما قال (إنا أعطيناك الكوثر) طلب منه الصلاة والنحر وفائدته إسقاط حق الرجوع .

﴿ الفائدة الخامسة ﴾ أنه بنى الفعل على المبتدأ ، وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه أنك لما ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأمر فيصير مشتاقاً إلى معرفة أنه بماذا يخبر عنه ، فإذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ فى التحقيق ونفى الشبهة

ومن ههنا تعرف الفخامة فى قوله (فإنها لا تعمى الأبصار) فإنه أكثر فخامة مما لو قال فإن الأبصار لا تعمى ، ومما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بأمرك . وذلك إذا كان الموعود به أمراً عظيما . فلما تقع المسامحة به فعظمه يورث الشك فى الوفاء به ، فإذا أسند إلى المتكفل العظيم ، فحينئذ يزول ذلك الشك ، وهذه الآية من هذا الباب لأن الكوثر شىء عظيم ، قلما تقع المسامحة به . فلما قدم المبتدأ ، وهو قوله (إنا) صار ذلك الإسناد مزيلا لذلك الشك ودافعاً لتلك الشبهة .

﴿ الفائدة السادسة ﴾ أنه تعالى صدر الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم . وكلام الصادق مصون عن الخلف ، فكيف إذا بالغ فى التأكيد .

﴿ الفائدة السابعة ﴾ قال (أعطيناك) ولم يقل سنعطيك لأن قوله (أعطيناك) يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلا فى الماضى ، وهذا فيه أنواع من الفوائد (إحداها) أن من كان فى الزمان الماضى أبداً عزيزاً مرعى الجانب مقضى الحاجة أشرف ممن سيصير كذلك ، ولهذا قال عليه السلام « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » (وثانيها) أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والاغناء والإفقار ، ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلا فى الأزل (وثالثها) كأنه يقول إنا قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك فى الوجود ، فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية ! (ورابعها) كأنه تعالى يقول نحن ما اخترناك وما فضلناك ، لأجل طاعتك ، وإلا كان يجب أن لا نعطيك إلا بعد إقدامك على الطاعة ، بل إنما اخترناك بمجرد الفضل والاحسان منا إليك من غير موجب ، وهو إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام « قبل من قبل لا لعلة ، ورد من رد لا لعلة » .

﴿ الفائدة الثامنة ﴾ قال (أعطيناك) ولم يقل أعطينا الرسول أو النبى أو العالم أو المطيع ، لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف ، فلما قال (أعطيناك) علم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلا بل هى محض الاختيار والمشيئة ، كما قال (نحن قسمنا ، الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) .

﴿ الفائدة التاسعة ﴾ قال أولا (إنا أعطيناك) ثم قال ثانياً (فصل لربك وانحر) وهذا يدل على أن إعطاءه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعاتنا ، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعتنا له صفتنا ، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة فى صفة الخالق إنما المؤثر هو صفة الخالق فى صفة الخلق ، ولهذا نقل عن الواسطى أنه قال لا أعبد رباً يرضيه طاعتى ويسخطه معصيتى . ومعناه أن رضاه وسخطه قديمان وطاعتى ومعصيتى محدثتان والمحدث لا أثر له فى قديم ، بل رضاه عن العبد هو الذى حمله على طاعته فيما لا يزال ، وكذا القول فى السخط والمعصية .

﴿ الفائدة العاشرة ﴾ قال (أعطيناك الكوثر) ولم يقل آتيناك الكوثر ، والسبب فيه أمران

(الأول) أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجباً وأن يكون تفضلا ، وأما الإعطاء فانه بالتفضل أشبه فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يعنى هذه الخيرات الكثيرة وهى الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل فى الدنيا والآخرة ، محض التفضل منا إليك وليس منه شىء على سبيل الاستحقاق والوجوب ، وفيه بشارة من وجهين (أحدهما) أن الكريم اذا شرع فى التربية على سبيل التفضل ، فالظاهر أنه لا يبطلها ، بل كان كل يوم يزيد فيها (الثانى) أن ما يكون سبب الاستحقاق ، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق ، وفعل العبد متناه ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهياً ، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله ، وكرم الله غير متناه ، فيكون تفضله أيضاً غير متناه ، فلما دل قوله (أعطيناك) على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبداً . فإن قيل : أليس قال (آتيناك سبعاً من المثانى) ؟ قلنا الجواب من وجهين (الأول) أن الإعطاء يوجب التمليك ، والملك سبب الاختصاص ، والدليل عليه أنه لما قال سليمان (هب لى ملكاً) فقال (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك) ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال : الأمة تكون أضيافاً له ، أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك ، فلهذا قال فى القرآن (آتيناك) فإنه لا يجوز للنبى أن يكتم شيئاً منه (الثانى) أن الشركة فى القرآن شركة فى العلوم ولا عيب فيها ، أما الشركة فى النهر ، فهى شركة فى الأعيان وهى عيب (الوجه الثانى) فى بيان أن الإعطاء أليق بهذا المقام من الإيتاء ، هو أن الإعطاء يستعمل فى القليل والكثير ، قال الله تعالى (وأعطى قليلا وأكدى) أما الإيتاء ، فلا يستعمل إلا فى الشىء العظيم ، قال الله تعالى (وآتاه الله الملك ولقد آتينا داود منا فضلا) والأتى السيل المنصب ، إذا ثبت هذا فقوله (إنا أعطيناك الكوثر) يفيد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه (أحدها) يعنى هذا الحوض كالشىء القليل الحقير بالنسبة إلى ماهو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة ، فهو يتضمن البشارة بأشياء هى أعظم من هذا المذكور (وثانيها) أن الكوثر إشارة إلى الماء ، كأنه تعالى يقول الماء فى الدنيا دون الطعام ، فإذا كان نعيم الماء كوثراً ، فيكف سائر النعيم (وثالثها) أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء (ورابعها) كأنه تعالى يقول هذا الذى أعطيتك ، وإن كان كوثراً لكنه فى حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك ، وفى العادة أن المهدى إذا كان عظيما فالهدية وإن كانت عظيمة ، إلا أنه يقال إنها حقيرة أى هى حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدى له فكذا ههنا (وخامسها) أن نقول إنما قال فيما أعطاه من الكوثر أعطيناك لأنه دنيا ، والقرآن إيتاء لأنه دين (وسادسها) كأنه يقول : جميع مانلت منى عطية وإن كانت كوثراً إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفراً وخصمك أبتر ، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر ، أما الذكر الباقى والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك (فصل لربك وانحر) أى فاعبد لى وسل الظفر بعد العبادة فإنى أوجبت على كرمى أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة ، كذا روى فى الحديث المسند ، فحينئذ أستجيب فيصير

خصمك أبتر وهو الإيتاء ، فهذا ما يخطر بالبال فى تفسير قوله تعالى (إنا أعطيناك) أما الكوثر فهو فى اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط فى الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر ، بم آب ابنك ؟ قالت آب بكوثر ، أى بالعدد الكثير ، ويقال للرجل الكثير العطاء كوثر ، قال الكميت :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن الفضائل كوثرا

ويقال للغبار إذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر فى اللغة ، واختلف المفسرون فيه على وجوه (الأول) وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف أنه نهر فى الجنة ، روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « رأيت نهراً فى الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدى إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر ، فقلت ماهذا ؟ قيل الكوثر الذى أعطاك الله » وفى رواية أنس «أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، فيه طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان » ولعله إنما سمى ذلك النهر كوثراً إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيراً أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة ، كما روى أنه ما فى الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار ، او لكثرة الذين يشربون منها ، أو لكثرة ما فيها من المنافع على ما قال عليه السلام « إنه نهر وعدنيه ربى فيه خير كثير » (القول الثانى) أنه حوض والأخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول ، والقول الأول أن يقال لعل النهر ينصب فى الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع (والقول الثالث) الكوثر أولاده قالوا لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد ، فالمعنى أنه يعطيه نسلا يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت ، ثم العالم ممتلىء منهم ، ولم يبق من بنى أمية فى الدنيا أحد يعبأ به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم (القول الرابع) الكوثر علماء أمته وهو لعمرى الخير الكثير لأنهم كأنبياء بنى إسرائيل ، وهم يحيون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه ، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين فى الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه ، كذا علماء أمته متفقون بأسرهم على أصول شرعه ، لكنهم مختلفون فى فروع الشريعة رحمة على الخلق ، ثم الفضيلة من وجهين (أحدهما) أنه يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبى ويتبعه أمته فربما يجىء الرسول ومعه الرجل والرجلان ، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فربما يزيد عدد متبعى بعض العلماء على عدد متبعى ألف من الأنبياء (الوجه الثانى) أنهم كانوا مصيبين لاتباعهم النصوص المأخوذه من الوحى ، وعلماء هذه الأمه يكونون مصيبين مع كد الإستنباط والإجتهاد ، أو على قول البعض إن كان بعضهم مخطئاً لكن المخطىء يكون أيضاً مأجوراً (القول الخامس) الكوثر هو النبوة ، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التى هى ثانية الربوبية

ولهذا قال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وهو شطر الإيمان بل هى كالغصن فى معرفة الله تعالى ، لأن معرفة النبوة لابد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته ، ثم إذا حصلت معرفة النبوة فحينئذ يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع والبصر والصفات الخبرية والوجدانية على قول بعضهم ، ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة ، لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم ، ثم هو مبعوث إلى الثقلين ، وهو الذى يحشر قبل كل الأنبياء ، ولا يجوز ورود الشرع على نسخه وفضائله أكثر من أن تعد وتحصى . ولنذكر ههنا قليلا منها ، فنقول

إن كتاب آدم عليه السلام كان كلمات على ما قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) وكتاب إبراهيم أيضاً كان كلمات على ما قال (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) وكتاب موسى كان صحفاً ، كما قال (صحف إبراهيم وموسى) أما كتاب محمد عليه السلام ، فإنه هو الكتاب المهيمن على الكل ، قال (ومهيمناً عليه) وأيضاً فإن آدم عليه السلام إنما تحدى بالأسماء المنثورة فقال (أنبئونى بأسماء هؤلاء) ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما تحدى بالمنظوم (قل لئن اجتمعت الإنس والجن) وأما نوح عليه السلام ، فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء ، وفعل فى محمد ﷺ ما هو أعظم منه . روى أن النبى عليه الصلاة والسلام « كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبى جهل ، فقال لئن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذى هو فى الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق ، فأشار الرسول إليه ، فانقلع الحجر الذى أشار إليه من مكانه ، وسبح حتى صار بين يدى الرسول عليه السلام وسلم عليه ، وشهد له بالرسالة ، فقال النبى ﷺ يكفيك هذا ؟ قال حتى يرجع إلى مكانه ، فأمره النبى عليه الصلاة والسلام ، فرجع إلى مكانه ، وأكرم إبراهيم فجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وفعل فى حق محمد أعظم من ذلك . عن محمد بن حاطب قال « كنت طفلا فانصب القدر على من النار ، فاحترق جلدى كله فحملتنى أمى إلى الرسول ﷺ وقالت هذا ابن حاطب احترق كما ترى فتفل رسول الله ﷺ على جلدى ومسح بيده على المحترق منه ، وقال : أذهب الباس ، رب الناس ، فصرت صحيحاً لا بأس بى » وأكرم موسى ففلق له البحر فى الأرض ، وكرم محمداً ففلق له القمر فى السماء ، ثم انظر إلى فرق ما بين السماء والأرض ، وفجر له الماء من الحجر ، وفجر لمحمد أصابعه عيوناً ، وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام ، وكذا أكرم محمداً بذلك فكان الغمام يظلله ، وأكرم موسى باليد البيضاء . وأكرم محمداً بأعظم من ذلك وهو القرآن العظيم ، الذى وصل نوره إلى الشرق والغرب ، وقلب الله عصا موسى ثعباناً ، ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين ، فانصرف مرعوباً ، وسبحت الجبال مع داود وسبحت الأحجار فى يده ويد أصحابه ، وكان داود إذا مسك الحديد لان ، وكان هو لما مسح الشاة الجرباء درت ، وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمداً بالبراق ، وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى ، وأكرمه بجنس ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة ، فلما وضع اللقمة فى فمه أخبرته ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، روى

أن امرأة معاذ بن عفراء أتته وكانت برصاء ، وشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمسح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله البرص ، وحين سقطت حدقة الرجل يوم أحد فرفعها وجاء بها إلى الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردها إلى مكانها ، وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس فى بيوتهم ، والرسول عرف ما أخفاه عمه مع أم الفضل ، فأخبره فأسلم العباس لذلك ، وأما سليمان فإن الله تعالى رد له الشمس مرة ، وفعل ذلك أيضا للرسول حين نام ورأسه فى حجر على فانتبه وقد غربت الشمس ، فردها حتى صلى ، وردها مرة أخرى لعلى فصلى العصر فى وقته ، وعلم سليمان منطق الطير ، وفعل ذلك فى حق محمد ، روى أن طيراً فجع بولده فجعل يرفوف على رأسه ويكلمه فقال أيكم فجع هذه بولدها ؟ فقال رجل أنا ، فقال اردد إليها ولدها ! وكلام الذئب معه مشهور ، وأكرم سليمان بمسيرة غدوة شهراً وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس فى ساعة ، وكان حماره يعفور يرسله إلى من يريد فيجىء به ، وقدشكوا إليه من ناقة أنها أغيلت ، وأنهم لا يقدرون عليها فذهب إليها ، فلما رأته خضعت له ، وأرسل معاذا إلى بعض النواحى ، فلما وصل إلى المفازة ، فإذا أسد جاثم فهاله ذلك ولم يستجر [ىء] أن يرجع ، فتقدم وقال إنى رسول رسول الله فتبصبص ، وكما انقاد الجن لسليمان ، فكذلك انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وحين جاء الأعرابى بالضب ، وقال لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الضب ، فتكلم الضب معترفاً برسالته ، وحين كفل الظبية حين أرسلها الأعرابى رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة وحنت الحنانة لفراقه ، وحين لسعت الحية عقب الصديق فى الغار ، قالت كنت مشتاقة إليه منذ كذا سنين فلم حجبتنى عنه ! وأطعم الخلق الكثير ، من الطعام القليل ومعجزاته أكثر من أن تحصى وتعد ، فلهذا قدمه الله على الذين اصطفاهم ، فقال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) فلما كانت رسالته كذلك جاز أن يسميها الله تعالى كوثراً ، فقال (إنا أعطيناك الكوثر (القول السادس) الكوثر هو القرآن ، وفضائله لا تحصى ، (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى) (القول السابع) الكوثر الإسلام ، وهو لعمرى الخير الكثير ، فإن به يحصل خير الدنيا والآخرة . وبفواته يفوت خير الدنيا وخير الآخرة ، وكيف لا والاسلام عبارة عن المعرفة ، أو مالا بد فيه من المعرفة ، قال (ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وإذا كان الإسلام خيراً كثيراً فهو الكوثر ، فإن قيل لم خصه بالاسلام ، مع أن نعمه عمت الكل ؟ قلنا لأن الاسلام وصل منه إلى غيره ، فكان عليه السلام كالأصل فيه (القول الثامن) الكوثر كثرة الأتباع والأشياع ، ولا شك أن له من الأتباع مالا يحصيهم إلا الله ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام ، قال « أنا دعوة خليل الله إبراهيم ، وأنا بشرى عيسى ، وأنا مقبول الشفاعة يوم القيامة ، فبينا أكون مع الأنبياء ، إذ تظهر لنا أمة من الناس فنبتدرهم بأبصارنا ما منا من نبى إلا وهو يرجو أن تكون أمته ، فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء ، فأقول أمتى ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يظهر لنا مثلا ما ظهر أولا

فنبتدرهم بأبصارنا ما من نبى إلا ويرجو أن تكون أمته فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء فأقول أمتى ورب الكعبة ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يرفع لنا ثلاثة أمثال ما قد رفع فنبتدرهم ، وذكر كما ذكر فى المرة الأولى والثانية ، ثم قال (ليدخلن) ثلاث فرق من أمتى الجنة قبل أن يدخلها أحد من الناس » ولقد قال عليه الصلاة السلام « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة ، ولو بالسقط » فإذا كان يباهى بمن لم يبلغ حد التكليف ، فكيف بمثل هذا الجم الغفير ، فلا جرم حسن منه تعالى أن يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال (إنا أعطيناك الكوثر) (القول التاسع) (الكوثر) الفضائل الكثيرة التى فيه ، فإنه باتفاق الأمة أفضل من جميع الأنبياء ، قال المفضل بن سلمة يقال رجل كوثر إذا كان سخياً كثير الخير ، وفى صحاح اللغة (الكوثر) السيد الكثير الخير ، فلما رزق الله تعالى محمداً هذه الفضائل العظيمة حسن منه تعالى أن يذكره تلك النعمة الجسيمة فيقول (إنا أعطيناك الكوثر) (القول العاشر) الكوثر رفعة الذكر ، وقد مر تفسيره فى قوله (ورفعنا لك ذكرك) (القول الحادى عشر) أنه العلم قالوا وحمل الكوثر على هذا أولى لوجوه (أحدها) أن العلم هو الخير الكثير قال (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وأمره بطلب العلم ، فقال (وقل رب زدنى علماً) وسمى الحكمة خيرا كثيراً ، فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) (وثانيها) أنا إما أن نحمل الكوثر على نعم الآخرة ، أو على نعم الدنيا ، والأول غير جائز لأنه قال أعطينا ، ونعم الجنة سيعطيها لا أنه أعطاها ، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه فى الدنيا ، وأشرف الأمور الواصلة إليه فى الدنيا هو العلم والنبوة داخلة فى العلم ، فوجب حمل اللفظ على العلم (وثالثها) أنه لما قال (أعطيناك الكوثر) قال عقيبه (فصل لربك وانحر) والشىء الذى يكون متقدماً على العبادة هو المعرفة ، ولذلك قال فى سورة النحل (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وقال فى طه (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) فقدم فى السورتين المعرفة على العبادة ، ولأن فاء التعقيب فى قوله (فصل) تدل على أن إعطاء الكوثر كالموجب لهذه العبادة ، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم ، (القول الثانى عشر) أن الكوثر هو الخلق الحسن ، قالوا الانتفاع بالخلق الحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعاقل ، فأما الانتفاع بالعلم ، فهو مختص بالعقلاء ، فكان نفع الخلق الحسن أعم ، فوجب حمل الكوثر عليه ، ولقد كان عليه السلام كذلك كان للأجانب كالوالد يحل عقدهم ويكفى مهمهم ، وبلغ حسن خلقه إلى أنهم لما كسروا سنه ، قال « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » (القول الثالث عشر) الكوثر هو المقام المحمود الذى هو الشفاعة ، فقال فى الدنيا (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وقال فى الآخرة « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » وعن أبى هريرة قال عليه السلام « إن لكل نبى دعوة مستجابة وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » (القول الرابع عشر) أن المراد من الكوثر هو هذه السورة ، قال وذلك لأنها مع

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾

قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة ، وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه (أولها) أنا إذا حملنا الكوثر على كثرة الاتباع ، أو على كثرة الأولاد ، وعدم انقطاع النسل كان هذا إخباراً عن الغيب ، وقد وقع مطابقاً له ، فكان معجزاً (وثانيها) أنه قال (فصل لربك وانحر) وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر ، وقد وقع فيكون هذا أيضاً إخباراً عن الغيب (وثالثها) قوله (إن شانئك هو الأبتر) وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزاً (ورابعها) أنهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها ، فثبت أن وجه الإعجاز فى كمال القرآن ، إنما تقرر بها لأنهم لما عجزوا عن معارضتها مع صغرها فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن أولى ، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة وإذا تقررت النبوة فقد تقرر التوحيد ومعرفة الصانع ، وتقرر الدين والاسلام ، وتقرر أن القرآن كلام الله وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيرات الدنيا والآخرة فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية باثبات جميع المقاصد فكانت صغيرة فى الصورة كبيرة فى المعنى ، ثم لها خاصية ليست لغيرها وهى أنها ثلاث آيات ، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز فهى بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز وهذه الخاصية لا توجد فى سائر السور فيحتمل أن يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة (القول الخامس عشر) أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام ، وهو المنقول عن ابن عباس لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة ، فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقى فوجب حملها على الكل ، وروى أن سعيد بن جبير ، لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم : إن ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد النهر الذى فى الجنة من الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه ، وقال بعض العلماء ظاهر قوله (إنا أعطيناك الكوثر) يقتضى أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الأعداء ، وأما الحوض وسائر ما أعد له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله نهر كالواقع إلا أن الحقيقة ماقدمناه لأن ذلك وإن أعد له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه فى حال نزول هذه السورة بمكة ، ويمكنه أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بضيعة له يصح أن يقال إنه أعطاه تلك الضيعة مع أن الصبي فى تلك الحال لا يكون أهلا للتصرف والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (فصل) وجوه (الأول) أن المراد هو الأمر بالصلاة ، فإن قيل اللائق عند النعمة الشكر ، فلم قال فصل ولم يقل فاشكر ؟ (الجواب) من وجوه (الأول)

أن الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان (أحدها) يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره (والثانى) باللسان وهو أن يمدحه (والثالث) بالعمل وهو أن يخدمه ويتواضع له ، والصلاة مشتملة على هذه المعانى ، وعلى ما هو أزيد منها فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن . (وثانيها) أنه لو قال فاشكر لكان ذلك يوهم أنه ما كان شاكراً لكنه كان من أول أمره عارفاً بربه مطيعاً له شاكراً لنعمه ، أما الصلاة فإنه إنما عرفها بالوحى ، قال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) (الثالث) أنه فى أول ما أمره بالصلاة . قال محمد عليه الصلاة والسلام : كيف أصلى ولست على الوضوء ، فقال الله (إنا أعطيناك الكوثر) ثم ضرب جبريل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقيل له عند ذلك فصل ، فأما إذا حملنا الكوثر على الرسالة ، فكأنه قال أعطيتك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات وأشرفها الصلاة فصل لربك (القول الثانى) فصل لربك أى فاشكر لربك ، وهو قول مجاهد وعكرمة ، وعلى هذا القول ذكروا فى فائدة الفاء فى قوله فصل وجوهاً (أحدها) التنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخى (وثانيها) أن المراد من فاء التعقيب ههنا الإشارة ، إلى ما قرره بقوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ثم إنه خص محمداً ﷺ فى هذا الباب بمزيد مبالغة ، وهو قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ولأنه قال له (فإذا فرغت فانصب) أى فعليك بأخرى عقيب الأولى فكيف بعد وصول نعمتى إليك ، ألا يجب عليك أن تشرع فى الشكر عقيب ذلك (القول الثالث) فصل أى فادع الله لأن الصلاة هى الدعاء ، وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك (بالكوثر) فكيف بعد سؤالك لكن «سل تعطه واشفع تشفع» وذلك لأنه كان أبداً فى هم أمته ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه أقرب إلى عرف الشرع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (وانحر) قولان :

(الأول) وهو قول عامة المفسرين : أن المراد هو نحر البدن (والقول الثانى) أن المراد بقوله (وانحر) فعل يتعلق بالصلاة ، إما قبلها أو فيها أو بعدها ، ثم ذكروا فيه وجوها : (أحدها) قال الفراء معناها استقبل القبلة (وثانيها) روى الأصبغ بن نباتة عن على عليه السلام قال لما نزلت هذه السورة قال النبى عليه الصلاة والسلام لجبريل « ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى ؟ قال ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنه صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين فى السموات السبع وإن لكل شىء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة » (وثالثها) روى عن على بن أبى طالب أنه فسر هذا النحر بوضع اليدين على النحر فى الصلاة ، وقال رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع (ورابعها) قال عطاء معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك (وخامسها) روى عن الضحاك ، وسليمان التيمى أنهما قالا (انحر)

معناه ارفع يديك عقيب الدعاء إلى نحرك ، قال الواحدى ، وأصل هذه الأقوال كلها من النحر الذى هو الصدر يقال لمذبح البعير النحر لأن منحره فى صدره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر فمعنى النحر فى هذا الموضع هو إصابة النحر كما يقال رأسه وبطنه إذا أصاب ذلك منه . وأما قول الفراء إنه عبارة عن استقبال القبلة فقال ابن الأعرابى النحر انتصاب الرجل فى الصلاة بازاء المحراب وهو أن ينصب نحره بازاء القبلة ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالا ، وقال الفراء منازلهم تتناحر أى تتقابل وأنشد :

أبا حكم هل أنت عم مجالد   وسيد أهل الأبطح المتناحر

والنكتة المعنوية فيه كأنه تعالى يقول الكعبة بيتى وهى قبلة صلاتك وقلبك وقبلة رحمتى ونظر عنايتى فلتكن القبلتان متناحرتين قال الأكثرون حمله على نحر البدن أولى لوجوه (أحدها) هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة فى كتابه ذكر الزكاة بعدها (وثانيها) أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فقيل له فصل وانحر لربك (وثالثها) أن هذه الأشياء آداب الصلاة وأبعاضها فكانت داخلة تحت قوله (فصل لربك) فوجب أن يكون المراد من النحر غيرها لأنه يبعد أن يعطف بعض الشىء على جميعه (ورابعها) أن قوله (فصل) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله (وانحر) إشارة إلى الشفقة على خلق الله وجملة العبودية لاتخرج عن هذين الأصلين (وخامسها) أن استعمال لفظة النحر على نحر البدن أشهر من استعماله فى سائر الوجوه المذكورة ، فيجب حمل كلام الله عليه ، وإذا ثبت هذا فنقول استدلت الحنفية على وجوب الأضحية بأن الله تعالى أمره بالنحر ، ولا بد وأن يكون قد فعله ، لأن ترك الواجب عليه غير جائز ، وإذا فعله النبى عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله (واتبعوه) ولقوله (فاتبعونى يحببكم الله) وأصحابنا قالوا الأمر بالمتابعة مخصوص بقوله « ثلاث كتبت على ولم تكتب عليكم الضحى والأضحى والوتر » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف من فسر قوله (فصل) بالصلاة على وجوه (الأول) أنه أراد بالصلاة جنس الصلاة لأنهم كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله فأمره أن لا يصلى ولا ينحر إلا لله تعالى ، واحتج من جوز تأخير بيان المجمل بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أمر بالصلاة مع أنه ما بين كيفية هذه الصلاة أجاب أبو مسلم ، وقال أراد به الصلاة المفروضة أعنى الخمس وإنما لم يذكر الكيفية ، لأن الكيفية كانت معلومة من قبل (القول الثانى) أراد صلاة العيد والأضحية لأنهم كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية ، قال المحققون هذا قول ضعيف لأن عطف الشىء على غيره بالواو لا يوجب الترتيب (القول الثالث) عن سعيد بن جبير صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى ، والأقرب القول الأول لأنه لا يجب إذا قرن ذكر النحر بالصلاة أن تحمل الصلاة على ما يقع يوم النحر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام فى قوله (لربك) فيها فوائد (الفائدة الأولى) هذه اللام للصلاة كالروح للبدن ، فكما أن البدن من الفرق إلى القدم ، إنما يكون حسناً ممدوحاً إذا كان فيه روح أما إذا كان ميتاً فيكون مرمياً ، كذا الصلاة والركوع والسجود ، وإن حسنت فى الصورة وطالت ، لو لم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية ، والمراد من قوله تعالى لموسى (وأقم الصلاة لذكرى) وقيل إنه كانت صلاتهم ونحرهم للصنم فقيل له لتكن صلاتك ونحرك لله .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ كأنه تعالى يقول ذكر فى السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراءاة فصل أنت لا للرياء لكن على سبيل الإخلاص .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفاء فى قوله (فصل) تفيد سببية أمرين (أحدهما) سببية العبادة كأنه قيل : تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية (والثانى) سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له إنك أبتر فقيل له كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة ، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم .

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب ، والفاء فى قوله (فصل) اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم ، لاجرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبى عليه الصلاة والسلام فقال « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ولقد صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له أوليس قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « أفلا أكون عبداً شكوراً » فقوله « أفلا أكون عبداً شكوراً » إشارة إلى أنه يجب على الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء فى قوله (فصل) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كان الأليق فى الظاهر أن يقول : إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لنا وانحر . لكنه ترك ذلك إلى قوله (فصل لربك) لفوائد (إحداها) أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة (وثانيها) أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم : يأمرك أمير المؤمنين ، وينهاك أمير المؤمنين (وثالثها) أن قوله (إنا أعطيناك) ليس فى صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره ، وأيضاً كلمة إنا تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه ، فلو قال صل لنا ، لنفى ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك ، فلهذا ترك اللفظ ، وقال (فصل لربك) ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد فى الطاعة والعمل لله تعالى .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله (فصل لربك) أبلغ من قوله : فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله (إنا أعطيناك الكوثر) ويفيد الوعد الجميل فى المستقبل أنه يربيه ولا يتركه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى الآية سؤالان : (أحدهما) أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة ، فلم كان المذكور ههنا هو النحر ؟ (والثانى) لما لم يقل ضحى حتى يشمل جميع أنواع

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

الضحايا ؟ (والجواب) عن الأول ، أما على قول من قال : المراد من الصلاة صلاة العيد ، فالأمر ظاهر فيه ، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة ، فلوجوه (أحدها) أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان ، فقيل له اجعلهما لله (وثانيها) أن من الناس من قال : إنه عليه السلام ما كان يدخل فى ملكه شىء من الدنيا ، بل كان يملك بقدر الحاجة ، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه ، أما النحر فقد كان واجباً عليه لقوله « ثلاث كتبت على ولم تكتب على أمتى : الضحى والأضحى والوتر » (وثالثها) أن أعز الأموال عند العرب ، هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيهاً على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها ، روى أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا ، ثم أمر علياً عليه السلام بذلك ، وكانت النوق يزدحمن على رسول الله ، فلما أخذ على السكين تباعدت منه (والجواب عن الثانى) أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا ، وأيضاً فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر ، لا لأن الواو توجب الترتيب ، بل لقوله عليه السلام « ابدؤا بما بدأ الله به » .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ السورة مكية فى أصح الأقوال ، وكان الأمر بالنحر جارياً مجرى البشارة بحصول الدولة ، وزوال الفقر والخوف .

قوله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى سبب النزول وجوهاً (أحدها) أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد ، والعاص بن وائل السهمى يدخل فالتقيا فتحدثا ، وصناديد قريش فى المسجد ، فلما دخل قالوا من الذى كنت تتحدث معه ؟ فقال ذلك الأبتر ، وأقول إن ذلك من إسرار بعضهم مع بعض ، مع أن الله تعالى أظهره ، فحينئذ يكون ذلك معجزاً ، وروى أيضاً أن العاص بن وائل كان يقول : إن محمداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فإذا مات انقطع ذكره واسترحم منه ، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة ، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبى وعامة أهل التفسير (القول الثانى) روى عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشراف مكة أتاه جماعة قريش فقالوا نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة ، فنحن خير أم هذا الأبتر من قومه ، يزعم أنه خير منا ؟ فقال بل أنتم خير منه فنزل (إن شانئك هو الأبتر) ونزل أيضاً (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) ، (والقول الثالث) قال عكرمة وشهر بن حوشب لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشاً إلى الإسلام ، قالوا بتر محمد أى خالفنا وانقطع

عنا ، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون (القول الرابع) نزلت فى أبى جهل فإنه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل إنى أبغضه لأنه أبتر ، وهذا منه حماقة حيث أبغضه بأمر لم يكن باختياره فان موت الإبن لم يكن مراده (القول الخامس) نزلت فى عمه أبى لهب فانه لما شافهه بقوله تباً لك كان يقول فى غيبته إنه أبتر (والقول السادس) أنها نزلت فى عقبة بن أبى معيط ، وإنه هو الذى كان يقول ذلك ، واعلم أنه لا يبعد فى كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فانهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك ، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشنآن هو البغض . والشانىء هو المبغض ، وأما البتر فهو فى اللغة استئصال القطع يقال بترته أبتره بتراً وبتر أى صار أبتر وهو مقطوع الذنب ، ويقال للذى لا عقب له أبتر ، ومنه الحمار الأبتر الذى لاذنب له ، وكذلك لمن انقطع عنه الخير .

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ، فانك إذا قلت زيد هو العالم يفيد أنه لا عالم غيره ، إذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام إنه أبتر لاشك أنهم لعنهم الله أرادوا به أنه انقطع الخير عنه .

ثم ذلك إما أن يحمل على خير معين ، أو على جميع الخيرات (أما الأول) فيحتمل وجوهاً (أحدها) قال السدى كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده بتر ، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا بتر فليس له من يقوم مقامه ، ثم إنه تعالى بين أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة ، فانا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع ، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو وهكذا يكون إلى قيام القيامة (وثانيها) قال الحسن عنوا بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله تعالى بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك ، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين ، وصارت رايات الإسلام عالية ، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة (وثالثها) زعموا أنه أبتر لأنه ليس له ناصر ومعين ، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب (ورابعها) الأبتر هو الحقير الذليل ، روى أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم ، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف ، ثم قال قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه وأجعله ذليلا حقيراً ، فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطاً ، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد فى أن يصرعه ، وبقى النبى عليه الصلاة والسلام واقفاً كالجبل ، ثم بعد ذلك رماه النبى صلى الله عليه وسلم على أقبح وجه ، فلما رجع أخذه باليد اليسرى ، لأن اليسرى للاستنجاء ، فكان نجساً فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره ، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله (إن شانئك هو الأبتر) هذه الواقعة (وخامسها) أن الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف ، قيل (إن شانئك هو

الأبتر) أى الذى قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى ، وأما المدح الذى ذكرناه فيك ، فإنه باق على وجه الدهر (وسادسها) أن رجلا قام إلى الحسن بن على عليهما السلام ، وقال : سودت وجوه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاوية ، فقال لا تؤذينى يرحمك الله ، فإن رسول الله رأى بنى أمية فى المنام يصعدون منبره رجلا فرجلا فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) فكان ملك بنى أمية كذلك ، ثم انقطعوا وصاروا مبتورين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكفار لما شتموه ، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة ، فقال (إن شانئك هو الأبتر) وهكذا سنة الأحباب ، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه ، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم ، وذكر مثل ذلك فى مواضع حين قالوا (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ، افترى على الله كذباً أم به جنة) فقال سبحانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) وحين قالوا هو مجنون أقسم ثلاثاً ، ثم قال (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ولما قالوا (لست مرسلا) أجاب فقال (يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين) وحين قالوا (أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) رد عليهم وقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فصدقه ، ثم ذكر وعيد خصمائه ، وقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) وحين قال حاكياً (أم يقولون شاعر) قال (وما علمناه الشعر) ولما حكى عنهم قولهم (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) سماهم كاذبين بقوله (فقد جاءوا ظلماً وزوراً) ولما قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) أجابهم فقال (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) فما أجل هذه الكرامة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أنه تعالى لما بشره بالنعم العظيمة ، وعلم تعالى أن النعمة لاتهنأ إلا إذا صار العدو مقهوراً ، لا جرم وعده بقهر العدو ، فقال (إن شانئك هو الأبتر) وفيه لطائف (إحداها) كأنه تعالى يقول : لا أفعله لكى يرى بعض أسباب دولتك ، وبعض أسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ (وثانيها) وصفه بكونه شانئاً ، كأنه تعالى يقول : هذا الذى يبغضك لا يقدر على شىء آخر سوى أنه يبغضك ، والمبغض إذا عجز عن الإيذاء ، فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً ، فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو (وثالثها) أن هذا الترتيب يدل على أنه إنما صار أبتر ، لأنه كان شانئاً له ومبغضاً ، والأمر بالحقيقة كذلك ، فإن من عادى محموداً فقد عادى الله تعالى ، لا سيما من تكفل الله بإعلان شأنه وتعظيم مرتبته (ورابعها) أن العدو وصف محمداً عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة ، ونفسه بالكثرة والدولة ، فقلب الله الأمر عليه ، وقال العزيز من أعزه الله ، والذليل من أذله الله . فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام ، والأبترية والدناءة والذلة للعدو ، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أن من تأمل فى مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التى

ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة فى البحر . روى عن مسيلمة أنه عارضها فقال : إناأعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ، إن مبغضك رجل كافر ، ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب لوجوه (أحدها) أن الألفاظ والترتيب مأخوذان من هذه السورة ، وهذا لا يكون معارضة (وثانيها) أنا ذكرنا أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها ، وكالأصل لما بعدها ، فذكر هذه الكلمات وحدها يكون إهمالا لأكثر لطائف هذه السورة (وثالثها) التفاوت العظيم الذى يقر به من له ذوق سليم بين قوله (إن شانئك هو الأبتر) وبين قوله : إن مبغضك رجل كافر ، ومن لطائف هذه السورة أن كل أحد من الكفار وصف رسول الله ﷺ بوصف آخر ، فوصفه بأنه لا ولد له ، وآخر بأنه لا معين له ولا ناصر له ، وآخر بأنه لا يبقى منه ذكر ، فالله سبحانه مدحه مدحاً أدخل فيه كل الفضائل ، وهو قوله (أنا أعطيناك الكوثر) لأنه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشىء دون شىء ، لاجرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة ، ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيئان ، لأن طاعة البدن هى الصلاة ، وطاعة المال هى الزكاة ، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتى بشىء إلا لأجل الله ، واللام فى قوله (لربك) يدل على هذه الحالة ، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن ، فقدم طاعة البدن فى الذكر ، وهو قوله (فصل) وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيها على فساد مذهب أهل الإباحة فى أن العبد قد يستغنى بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه ، فهذه اللام تدل على بطلان مذهب الإباحة ، وعلى أنه لا بد من الإخلاص ، ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله فى المعاد ، كأنه يقول : كنت ربيتك قبل وجودك ، أفأترك تربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات ، ثم كما تكفل أولا بإفاضة النعم عليه تكفل فى آخر السورة بالذب عنه وإبطال قول أعدائه ، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول بإفاضة النعم ، والآخر بتكميل النعم فى الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

❁

١٠٨ — سورة الكوثر

(مكية وهى ثلاث آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ١٠٨ الكوثر

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ١٠٨ الكوثر

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ١٠٨ الكوثر

﴿ سورة الكوثر مكية وآيها ثلاث ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (إنا أعطيناك) وقرىء انطيناك (الكوثر) أى الخير المفرط الكثير ١
من شرف النبوة الجامعة لخيرى الدارين والرياسة العامة المستتبعة لسعادة الدنيا والدين فوعل من
الكثرة وقيل هو نهر فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال أتدرون ما الكوثر إنه نهر
فى الجنة وعدنيه ربى فيه خير كثير وروى فى صفته أنه أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن وأبرد من
الثلج وألين من الزبد حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء وروى لا يظمأ من شرب منه
أبداً أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث الرؤس الذين لا يزوجون المنعمات ولا تفتح
لهم أبواب السدد يموت أحدهم وحاجته تتلجلج فى صدره لو أقسم على الله لأبره وعن ابن عباس رضى
الله عنهما أنه فسر الكوثر بالخير الكثير فقال له سعيد بن جبير فإن ناساً يقولون هو نهر فى الجنة
فقال هو من الخير الكثير وقيل هو حوض فيها وقيل هو وأولاده وأتباعه أو علماء أمته أو القرآن
الحاوى لخير الدنيا والدين والفاء فى قوله تعالى (فصل لربك) لترتيب مابعدها على ماقبلها فإن إعطاءه ٢
تعالى إياه عليه السلام ماذكر من العطية التى لم يعطها ولن يعطيها أحداً من العالمين مستوجب للمأمور
به أى استيجاب أى فدم على الصلاة لربك الذى أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التى لا يضاهيها نعمة
خالصاً لوجهه خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداء لحقوق شكرها فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام
الشكر (وانحر) البدن التى هى خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافا لمن يدعهم *
ويمنع عنهم الماعون وعن عطية هى صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى وقيل صلاة العيد والتضحية وقيل
هى جنس الصلاة والنحر وضع اليمين على الشمال وقيل هو أن يرفع يديه فى التكبير إلى نحره هو المروى
عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما استقبل القبلة بنحرك وهو قول الفراء
والكلبى وأبى الأحوص (إن شانئك) أى مبغضك كائناً من كان (هو الأبتر) الذى لا عقب له ٣

وتسمى كما قال البقاعي سورة النحر. وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ونسب في البحر الى الجمهور. مدنية في قول الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد وفي الاتقان أنه الصواب ورجحه النووي عليه الرحمة في شرح صحيح مسلم لما أخرج الامام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي فى سننه وغيرهم عن أنس بن مالك قال أغفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقال إنه أنزل على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر حتى ختمها الحديث. وفي اخبار سبب النزول ما يقتضى كلا من القولين وستسمع بعضا منها ان شاء الله تعالى ومن هنا استشكل أمرها وذكر الخفاجى أن لبعضهم تأليفا صحح فيه أنها نزلت مرتين وحينئذ فلا اشكال. وآيها ثلاث بلا خلاف وليس في القرآن كما أخرج البيهقى عن ابن شبرمة سورة آيها أقل من ذلك بل قد صرحوا بأنها أقصر سورة في القرآن وقال الامام هي كالمقابلة للتى قبلها لأن السابقة وصف الله تعالى فيها المنافق بأربعة أمور البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة فذكر عز وجل في هذه السورة في مقابلة البخل انا أعطيناك الكوثر أى الخير الكثير وفي مقابلة ترك الصلاة فصل أى دم على الصلاة وفي مقابلة الرياء لربك أى لرضاه لا للناس وفي مقابلة منع الماعون وانحر وأراد به سبحانه التصدق بلحوم الاضاحى ثم قال فاعتبر هذه المناسبة العجيبة انتهى فلا تغفل

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ وقرأ الحسن وطلحة وابن محيصن والزعفرانى أنطيناك بالنون وهي على ماقال التبريزى لغة العرب العرباء من أولى قريش وذكر غيره انها لغة بنى تميم وأهل اليمن وليست من الابدال الصناعى في شيء ومن كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم اليد العليا المنطية واليد السفلى المنطاة وكتب عليه الصلاة والسلام لوائل أنطوا الثبجة أى الوسط في الصدقة ﴿ الْكَوْثَرَ ﴾ فيه أقوال كثيرة فذهب أكثر المفسرين الى انه نهر في الجنة لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم في آخر الحديث المتقدم آنفا المروى عن الامام أحمد ومسلم ومن معهما هل تدرون ما الكوثر قالوا الله تعالى ورسوله أعلم قال هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يارب انه من أمتى فيقال انك لاتدرى ما أحدث بعدك وقوله عليه الصلاة والسلام على ما أخرجه الامام أحمد والشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه وآخرون عن أنس عنه صلى الله تعالى عليه وسلم دخلت الجنة فاذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدى الى مايجرى فيه الماء فاذا مسك اذفر قلت ماهذا ياجبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاكه الله تعالى وجاء في حديث عن أنس أيضا قال دخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال قد أعطيت الكوثر قلت يارسول الله وما الكوثر قال نهر في الجنة عرضه وطوله مابين المشرق والمغرب لايشرب منه أحد فيظمأ ولا يتوضأ منه أحد فيشعث ابدا لايشربه منه من أخفر ذمتى ولا من قتل أهل بيتى وروى عن عائشة انها قالت هو نهر في الجنة عمقه سبعون ألف فرسخ ماؤه أشد بياضا

من اللبن وأحلى من العسل شاطئاه الدر والياقوت والزبرجد خص الله تعالى به نبيه محمد صلى الله تعالى عليه و سلم من بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقالت ليس أحد يدخل اصبعيه في أذنيه الاسمع خرير ذلك النهر وهو على التشبيه البليغ وقيل هو حوض له عليه الصلاة والسلام في المحشر. وقول بعضهم الاختلاف في الروايات سببه ملاحظة اختلاف سرعة السير وعدمها وهو قبل الميزان والصراط عند بعض وبعدهما قريبا من باب الجنة حيث يحبس أهلها من أمته صلى الله تعالى عليه وسلم ليتحاللوا من المظالم التى بينهم عند آخرين ويكون على هذا في الارض المبدلة. وقيل له صلى الله تعالى عليه وسلم حوضان حوض قبل الصراط وحوض بعده ويسمى كل منهما على ماحكاه القاضى زكريا كوثرا وصحح رحمه الله تعالى انه بعد الصراط وان الكوثر في الجنة وان ماءه ينصب فيه ولذا يسمى كوثرا وليس هو من خواصه عليه الصلاة والسلام كالنهر السابق بل يكون لسائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام يرده مؤمنو أممهم ففى حديث الترمذى ان لكل نبى حوضا وانهم يتباهون أيهم أكثر واردة وانى أرجو أن أكون أكثرهم واردة وهو كما قال حديث حسن غريب وهذه الحياض لا يجب الايمان بها كما يجب الايمان بحوضه عليه الصلاة والسلام عندنا خلافا للمعتزلة النافين له لكون أحاديثه بلغت مبلغ التواتر بخلاف أحاديثها فانها آحاد بل قيل لاتكاد تبلغ الصحة ورأيت في بعض الكتب ان الكوثر هو النهر الذى ذكره أولا وهو الحوض وهو على ظهر ملك عظيم يكون مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حيث يكون فيكون في المحشر اذ يكون عليه الصلاة والسلام فيه وفي الجنة اذ يكون عليه الصلاة والسلام فيها ولا يعجز الله تعالى شيء وقيل هو أولاده عليه الصلاة والسلام لان السورة نزلت ردا على من عابه صلى الله تعالى عليه وسلم وهم والحمد لله تعالى كثيرون قد ملؤا البسيطة وقال أبو بكر بن عباس ويمان بن وثاب أصحابه وأشياعه صلى الله تعالى عليه وسلم الى يوم القيامة وقيل علماء أمته صلى الله تعالى عليه وسلم وهم أيضا كثيرون في كل قطر وان كانوا اليوم في بعض الاقطار والامر لله تعالى أقل قليل وعن الحسن انه القرآن وفضائله لاتحصى وقال الحسين بن الفضل هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل هو الاسلام وقال هلال هو التوحيد وقال عكرمة هو النبوة وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه هو نور قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل هو العلم والحكمة وقال ابن كيسان هو الايثار وقيل هو الفضائل الكثيرة المتصف بها عليه الصلاة والسلام وقيل المقام المحمود وقيل غير ذلك وقد ذكر في التحرير ستة وعشرين قولا فيه وصحح في البحر قول النهر وجماعة انه الخير الكثير والنعم الدنيوية والاخروية من الفضائل والفواضل ورواه ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد وهو المشهور عن الحبر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقد أخرج البخارى وابن جرير والحاكم من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير عنه رضى الله تعالى عنه أنه قال الكوثر الخير الذى أعطاه الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام قال أبو بشر قلت لسعيد فان ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة قال النهر الذى في الجنة من الخير الذى أعطاه الله عز وجل اياه صلى الله تعالى عليه وسلم وحكى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضا وفيه اشارة الى أن ماصح في الاحاديث من تفسيره صلى الله تعالى عليه وسلم اياه بالنهر من باب التمثيل والتخصيص لنكتة والا فبعد ان صح الحديث في ذلك بل كاد يكون متواترا كيف يعدل عنه الى تفسير آخر وكذا يقال في سائر مافي الاقوال السابقة وغيرها. وهو فوعل من الكثرة صيغة مبالغة الشيء الكثير كثرة مفرطة قيل لاعرابية رجع ابنها من السفر بم آب ابنك قالت بكوثر وقال الكميت

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ☆ وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

وفي حذف موصوفه مالايخفى من المبالغة على ماأشار اليه شيخ الاسلام ابن تيمية وفي اسناد الاعطاء اليه دون الايتاء اشارة الى أن ذلك ايتاء على جهة التمليك فان الاعطاء دونه كثيرا مايستعمل في ذلك ومنه قوله تعالى لسليمان عليه السلام هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بعد قوله هب لى ملكا وقيل فيه اشارة الى ان المعطى وان كان كثيرا في نفسه قليل بالنسبة الى شأنه عليه الصلاة والسلام بناء على أن الايتاء لايستعمل الا في الشيء العظيم كقوله تعالى وآتاه الله الملك ولقد آتينا داود منا فضلا وآتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم والاعطاء يستعمل في القليل والكثير كما قال تعالى أعطى قليلا وأكدى ففيه من تعظيمه عليه الصلاة والسلام مافيه وقيل التعبير بذلك لانه بالتفضل أشبه بخلاف الايتاء فانه قد يكون واجبا ففيه اشارة الى الدوام والتزايد أبدا لان التفضل نتيجة كرم الله تعالى الغير المتناهي وفي جعل المفعول الاول ضمير المخاطب دون الرسول أونحوه اشعار بان الاعطاء غير معلل بل هو من محض الاختيار والمشيئة وفيه ايضا من تعظيمه عليه الصلاة والسلام بالخطاب مالايخفى وجوز أن يكون في اسناد الاعطاء الى نا اشارة الى أنه مما سعى فيه الملائكة والانبياء المتقدمون عليهم السلام وفي التعبير بالماضى قيل اشارة الى تحقق الوقوع وقيل اشارة الى تعظيم الاعطاء وأنه أمر مر على لم يترك الى ان يفعل بعد وقيل إشارة الى بشارة أخرى كانه قيل انا هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية وقيل اشاره الى أن حكم الله تعالى بالاغناء والافقار والاسعاد والاشقاء ليس أمرا حادثا بل هو حاصل في الازل .وبنى الفعل على المبتدا للتأكيد والتقوى وجوز أن يكون للتخصيص على بعض الاقوال السابقة في الكوثر وفي تأكيد الجملة بأن مالا يخفى من الاعتناء بشأن الخبر وقيل لرد استبعاد السامع الاعطاء لما أنه لم يعط والمعطى في غاية الكثرة وجوز أن يكون لرد الانكار على بعض الاقوال في الكوثر أيضا والفاء في قوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان اعطاءه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام ما ذكر من العطية التى لم يعطها أحدا من العالمين مستوجب للمأمور به أى استيجاب أى فدم على الصلاة لربك الذى أفاض عليك ما أفاض من الخير خالصا لوجهه عز وجل خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداء لحق شكره تعالى على ذلك فان الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ولذا قيل فصل دون فاشكر وانحر البدن التى هي خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافا لمن يدعهم ويمنع منهم الماعون كذا قيل وجعل السورة عليه كالمقابلة لما قبلها كما فعل الامام ولم يذكروا مقابل التكذيب بالدين وقال الشهاب الخفاجى أن الكوثر بمعنى الخير الكثير الشامل للاخروى يقابل ذلك لما فيه من اثباته ضمنا وكذا اذا كان بمعنى النهر والحوض والامر على تفسيره بالاسلام وتفسير الدين به أيضا في غاية الظهور والمراد بالصلاة عند أبى مسلم الصلاة المفروضة وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك وأخرجه الاول وابن المنذر عن ابن عباس وذهب جمع الى انها جنس الصلاة وقيل المراد بها صلاة العيد وبالنحر التضحية أخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد ابن جبير قال كانت هذه الآية يوم الحديبية أتاه جبريل عليهما الصلاة والسلام فقال انحر وارجع فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخطب خطبة الأضحى ثم ركع ركعتين ثم انصرف الى البدن فنحرها فذلك قوله تعالى فصل لربك وانحر واستدل به على وجوب تقديم الصلاة على التضحية وليس بشيء وأخرج عبد الرزاق وغيره عن مجاهد وعطاء وعكرمة انهم قالوا المراد صلاة الصبح بمزدلفة والنحر بمنى والاكثرون على أن المراد بالنحر نحر الاضاحى واستدل به بعضهم على وجوب الاضحية لمكان الامر مع قوله تعالى فاتبعوه وأجيب بالتخصص بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث كتبت على ولم تكتب عليكم الضحى

والاضحية والوتر وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى الاحوص أنه قال وانحر أى استقبل القبلة بنحرك واليه ذهب الفراء وقال يقال منازلهم تتناحر أى تتقابل وأنشد قوله

أبا حكم هل أنت عم مجالد ✡ وسيد أهل الابطح المتناحر

وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال لما نزلت هذه السورة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انا أعطيناك الخ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام ما هذه النحيرة التى أمرنى بها ربى فقال انها ليست بنحيرة ولكن يأمرك اذا تحرمت للصلاة ان ترفع يديك اذا كبرت واذا ركعت واذا رفعت رأسك من الركوع فانها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم فى السموات السبع وان لكل شىء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة وأخرج ابن جرير عن أبى جعفر رضى الله تعالى عنه أنه قال فى ذلك ترفع يديك أول ماتكبر فى الافتتاح وأخرج البخارى فى تاريخه والدارقطنى فى الافراد وآخرون عن الامير كرم الله تعالى وجهه أنه قال ضع يدك اليمنى على ساعد اليسرى ثم ضعهما على صدرك فى الصلاة وأخرج نحوه أبو الشيخ والبيهقى فى سننه عن أنس مرفوعا ورواه جماعة عن ابن عباس وروى عن عطاء ان معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك وعن الضحاك وسليمان التيمى انهما قالا معناه ارفع يديك عقيب الصلاة عند الدعاء الى نحرك ولعل فى صحة الاحاديث عند الاكثرين مقالا والا فما قالوا الذى قالوا وقد قال الجلال السيوطى فى حديث على كرم الله تعالى وجهه الاول انه أخرجه ابن أبى حاتم والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف وقال فيه ابن كثير انه حديث منكر جدا بل أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال الجلال فى الحديث الآخر عن الامير كرم الله تعالى وجهه أخرجه ابن أبى حاتم والحاكم بسند لاباس به ويرجح قول الاكثرين ان لم يصح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مايخالفه ان الاشهر استعمال النحر فى نحر الابل دون تلك المعانى وان سنة القرآن ذكر الزكاة بعد الصلاة وماذكر بذلك المعنى قريب منها بخلافه على تلك المعانى وان ماذكروه من المعانى يرجع الى آداب الصلاة أو ابعاضها فيدخل تحت فصل لربك ويبعد عطفه عليه دون ماعليه الاكثر مع أن القوم كانوا يصلون وينحرون للاوثان فالانسب أن يؤمر صلى الله تعالى عليه وسلم فى مقابلتهم بالصلاة والنحر له عز وجل هذا واعتبار الخلوص فى فصل الخ كما أشرنا اليه لدلالة السياق عليه وقيل لدلالة لام الاختصاص وفى الالتفات عن ضمير العظمة الى خصوص الرب مضافا الى ضميره عليه الصلاة والسلام تأكيد لترغيبه صلى الله تعالى عليه وسلم فى اداء ماأمر به على الوجه الاكمل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أى مبغضك كائنا من كان ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الذى لاعقب له حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك الى يوم القيامة ولك فى الآخرة مالايندرج تحت البيان وأصل البتر القطع وشاع فى قطع الذنب وقيل لمن لاعقب له أبتر على الاستعارة شبه الولد والأثر الباقى بالذنب لكونه خلفه فكأنه بعده وعدمه بعدمه وفسره قتادة بالحقير الذليل وليس بذاك كما يفصح عنه سبب النزول وفيها عليه دلالة على ان أولاد البنات من الذرية كما قال غير واحد واسم الفاعل أعنى شانىء ههنا قيل بمعنى الماضى ليكون معرفة بالاضافة فيكون الابتر خبره ولا يشكل ذلك بمن كان يبغضه عليه الصلاة والسلام قبل الايمان من أكابر الصحابة رضى الله تعالى عنهم ثم هداه الله تعالى للايمان وذاق حلاوته فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أحب اليه من نفسه وأعز عليه من روحه ولم يكن أبتر لما أن الحكم على المشتق يفيد علية مأخذه فيفيد الكلام ان الابترية معللة

بالبغض فتدبر وممنوقد زال في أولئك الاكابر رضي الله تعالى عنهم واختار بعضهم في دفع ذلك حمل اسم الفاعل على الاستمرار فهم لم يستمروا على البغض والظاهر أنه انقطاع نسل كل من كان مبغضا له عليه الصلاة والسلام حقيقة وقيل انقطع حقيقة أو حكما لان من أسلم من نسل المبغضين انقطع انتفاع أبيه منه بالدعاء ونحوه لانه لا عصمة بين مسلم وكافر.وما أشرنا اليه من ان هو ضمير فصل هوالاظهر وجوزأن يكون مبتدأ خبره الابتر والجملة خبر شانئك وحينئذ يجوز صناعة أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال وحمل شانئك على الجنس هوالظاهر وخصه بعضهم بمن جاء في سبب النزول واحدا أومتعددا وفيه روايات أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال كان أكبر ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية فمات القاسم عليه السلام وهو أول ميت من ولده عليه الصلاة والسلام بمكة ثم مات عبدالله عليه السلام فقال العاص بن وائل السهمي قد انقطع نسله فهو ابتر فانزل الله تعالى ان شانئك هو الابتر وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن شمر بن عطية قال كان عقبة بن أبي معيط يقول انه لا يبقى للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقب وهو ابتر فأنزل الله تعالى فيه ان شانئك هو الابتر وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال لما مات ابراهيم بن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مشى المشركون بعضهم الى بعض فقالوا ان هذا الصابىء قد بتر الليلة فانزل الله تعالى انا أعطيناك السورة وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس انه قال في الآية هوابوجهل أي لانها نزلت فيه وهذا المقدار في الرواية عن ابن عباس لا بأس به وحكاية أبي حيان عنه انه لما مات ابراهيم بن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج أبو جهل الى أصحابه فقال بتر محمد عليه الصلاة والسلام فانزل الله تعالى ان شانئك هو الابتر لا تكاد تصح لان هلاك اللعين أبي جهل على التحقيق قبل وفاة ابراهيم عليه السلام وعن عطاء انها نزلت في أبي لهب والجمهور على نزولها في العاص بن وائل وأياما كان فلا ريب في ظهور عموم الحكم والجملة كالتعليل لما يفهمه الكلام فكأنه قيل انا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم فصل وانحر خالصاً لوجه ربك ولا تكترث بقول الشانىء الكريه فانه هو الابتر لا أنت وتأكيدها قيل للاعتناء بشأن مضمونها وقيل هومثله في نحو قوله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون وذلك لمكان فلا تكترث الخ المفهوم من السياق وفي التعبير بالابتر دون المبتور على ما قال شيخ الاسلام ابن تيمية مالا يخفى من المبالغة وعمم هذا الشيخ عليه الرحمة كلا من جزأي الجملة فقال انه سبحانه يبتر شانىء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من كل خير فيبتر أهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة ويبتر حياته فلا ينتفع بها ولا يتزود فيها صالحا لمعاده ويبتر قلبه فلا يعي الخير ولا يؤهله لمعرفته تعالى ومحبته والايمان برسله عليهم السلام ويبتر أعماله فلا يستعمله سبحانه في طاعته ويبتره من الانصار فلا يجد له ناصرا ولا عونا ويبتره من جميع القرب فلا يذوق لها طعما ولا يجد لها حلاوة وان باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها وهذا جزاء كل من شنأ ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لاجل هواه كمن تأول آيات الصفات أو احاديثها على غير مراد الله تعالى ومراد رسوله عليه الصلاة والسلام او تمنى أن لا تكون نزلت أو قيلت ومن أقوى العلامات على شنآنه نفرته عنها اذا سمعها حين يستدل بها السني على ما دلت عليه من الحق وأي شنآن للرسول عليه الصلاة والسلام أعظم من ذلك وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغناء والدفوف والشبابات فاذا سمعوا القرآن يتلى أو قرىء في مجلسهم استطالوه واستثقلوه وكذلك من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة الى غير ذلك وأكمل نصيب من الانبتار على قدر شنآنه انتهى وفي بعضه نظر لا يخفى وقرأ ابن عباس شنيك بغير

ألف فقيل مقصور من شانى كما قالوا برد في بارد وبر في بار وجوز أن يكون بناه على فعل هذا واعلم ان هذه السورة الكريمة على قصرها وايجازها قد اشتملت على ما ينادى على عظيم اعجازها وقد اطال الامام فيها الكلام وأتى بكثير مما يستحسنه ذوو الافهام وذكر ان قوله تعالى وانحر متضمن الاخبار بالغيب وهو سعة ذات يده صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته وقيل مثله في ذلك ان شانئك هو الابتر. وذكر أنه روى أن مسيلمة الكذاب عارضها بقوله انا أعطيناك الزماجر فصل لربك وهاجر ان مبغضك رجل كافر. ثم بين الفرق من عدة أوجه وهو لعمرى مثل الصبح ظاهر ومن أراد الاطلاع على أزيد مما ذكر فليرجع الى تفسير الامام والله تعالى ولى التوفيق والانعام

تفســير سـورة الكوثر

وهي مكية؛ في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل. ومدنِية؛ في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة. وهي ثلاث آيات.

[١] ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثر﴾ قراءة العامة. ﴿إنا أَعْطيناك﴾ بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: ﴿أَنْطَيْنَاكَ﴾ بالنون؛ ورَوته أمّ سلمة عن النبيّ ﷺ؛ وهي لغة في العطاء؛ أنطيته: أعطيته. و﴿الكوثر﴾: فوعل من الكثرة؛ مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شيء كثيرٍ في العدد والقدر والخطر كوثراً. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت بكوثر؛ أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكميت:

وأنت كثيرٌ يابنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثرا

والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياع. والكوثر من الغبار: الكثير. وقد تكوثر [إذا كثر]؛ قال الشاعر:

وقد ثارَ نقع الموتِ حتى تَكَوثرا(١)

الثانية ـ واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطِيه النبيّ ﷺ على ستة عشر قولاً: **الأوّل** ـ أنه نهر في الجنة؛ رواه البخاريّ عن أنس والترمذيّ أيضاً

(١) هذا عجز بيت لحسان بن نشبة. وصدره كما في «اللسان»:

أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم

وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «الكَوْثر: نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدرّ والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج». هذا حديث حسن صحيح. **الثاني** ـ أنه حوض النبيّ ﷺ في الموقف؛ قاله عطاء. وفي «صحيح مسلم» عن أنس قال: بينما نحن[1] عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءه، ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليَّ آنفاً سورة ـ فقرأ ـ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إنا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرِبِّكَ وَٱنْحَرْ. إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ـ ثم قال ـ أتدرون ما الكوثر». ؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّه نَهرٌ وَعَدنِيهِ رَبِّي عَزَّ وجَلَّ، عليه خَيرٌ كَثِير هُوَ حَوْضٌ تَرِد عَلَيْه أمّتي يَوْمَ القيامة آنِيَتُهُ عَددُ النُّجُوم، فَيُخْتَلَجُ[2] العبدُ منهمْ فأقولُ إنَّهُ من أمّتي، فيقال إنك لا تَدرِي ما أَحْدَثَ بَعْدَك».

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة، ذكرناها في كتاب «التذكرة». وأن على أركانه الأربعة خُلَفَاءَه الأربعة؛ رضوان الله عليهم. وأنَّ من أبغض واحداً منهم لم يسقِه الآخر، وذكرنا هُناك من يُطْرَد عنه. فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك. ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثراً، لكثرة الواردة والشاربة من أمّة محمد عليه السلام هناك. ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. **الثالث** ـ أن الكوثَر النبوّةُ والكتابُ؛ قاله عكرمة. **الرابع** ـ القرآن؛ قاله الحسن. **الخامس** ـ الإسلام؛ حكاه المغيرة. **السادس** ـ تيسير[3] القرآن وتخفيف الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل. **السابع** ـ هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب. **الثامن** ـ أنه الإيثار؛ قاله ابن كَيْسان. **التاسع** ـ أنه رِفعة الذكر. حكاه الماورديّ. **العاشر** ـ أنه نور في قلبك دلك عليّ، وقطعك عما سوايَ. وعنه: هو الشفاعة؛ وهو الحادي عشر. وقيل: معجزات الربّ هُدِيَ بها أهلُ الإجابة لدعوتك؛ حكاه

---

(١) في «صحيح مسلم» طبع الآستانة وبولاق: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى...» الحديث. (٢) أي ينتزع ويقتطع.
(٣) في بعض نسخ الأصل: «تسهيل».

الثعلبيّ، وهو الثاني عشر. **الثالث عشر** - قال هلال بن يِساف: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقيل: الفقه في الدين. وقيل: الصلوات الخمس؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر. وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر؛ وذكر بيت لبِيد:

وصاحب مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفقدِهِ وعِندَ الرَّداعِ بيت آخرَ كَوْثَر

أي عظيم(١).

قلت: أصح هذه الأقوال الأوّل والثاني؛ لأنه ثابت عن النبيّ ﷺ نص في الكوثر. وسمِع أنس قوماً يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يَتَمارَوْن في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تصلّي امرأة منهنّ إلا سألت الله أن يسقِيها من حوض النبيّ ﷺ. وفي حوضه يقول الشاعر:

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكَا وأنتَ حَقًّا حبيبُ بارِيكَا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه ﷺ تسليماً كثيراً.

[٢] ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ أي أقم الصلاة المفروضة عليك؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال قتادة وعطاء وعِكرمة: ﴿فصل لِربك﴾ صلاة العيد يوم النحر. ﴿وانْحَرْ﴾ نُسُكك. وقال أنس: كان النبيّ ﷺ ينحر ثم يصلي، فأُمر أن يُصَلِّي ثم يَنْحَر. وقال سعيد بن جبير أيضاً: صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بَجَمْعٍ(٢)، وانْحرِ البُدْن بِمنًى. وقال سعيد بن جبير أيضاً: نزلت في الحُدَيْبِيَةِ حين حُصِر النبيّ ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى أن يُصَلِّيَ ويَنْحَر البُدْن وينصرف؛ ففعل ذلك. قال ابن العربي: «أما من

---

(١) ملحوب: ماء لبني أسد بن خزيمة. وصاحبه: عوف بن الأحوص. والرداع (بالكسر): اسم ماء أيضاً. والكوثر أيضاً: السيد الكثير الخير.

(٢) جمع: المزدلفة.

قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾: الصلوات الخمس؛ فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين. وأما من قال: إنَّهَا صلاة الصبح بالمزدَلِفة؛ فلأنها مقرونة بالنحْر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرَها؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحْر)».

قلت: وأما من قال إنها صلاة العِيد؛ فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكة صلاة عيدٍ بإجماع، فيما حكاه ٱبن عمر. قال ابن العربيّ: «فأما مالك فقال: ما سمعت فيه شيئاً، والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحْر، والنحْر بعدها». وقال عليّ رضي الله عنه ومحمد بن كعب: المعنى ضع اليُمْنَى على اليسرى حِذاء النحْر في الصلاة. ورُوِي عن ابن عباس أيضاً. وروي عن عليّ أيضاً: أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره. وكذا قال جعفر بن عليّ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾ قال: يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر. وعن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾ قال النبيّ ﷺ لجبريل: «ما هذه النحِيرة التي أمرني الله بها»؟ قال: «ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرّمت للصلاة، أن ترفع يديكَ إذا كَبّرتَ وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإنّ لكل شيء زينة، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة». وعن أبي صالح عن ٱبن عباس قال: ٱستَقْبِل القبلة بنحرك؛ وقاله الفرّاء والكلبيّ وأبو الأحوص. ومنه قول الشاعر:

أبا حكم ما أَنْتَ عَمُّ مُجالِدٍ وسَيِّدُ أهلِ الأبطَحِ المُتَنَاحِرِ[١]

أي المتقابل. قال الفرّاء: سمعت بعض العرب يقول: منازلنا[٢] تتناحر؛ أي نتقابل، نحر هذا بنحر هذا؛ أي قُبالته. وقال ٱبن الأعرابيّ: هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المِحراب؛ من قولهم: منازلهم تتناحر؛ أي تتقابل. ورُوي عن عطاء قال: أمره أن يستوي بين السجدتين

(١) في «اللسان»: نحر: (هل) في موضع (ما).

(٢) الذي في كتاب الفراء: «منازلنا تتناحر: نحر هذا... أي قبالته». وفيه تحريف. والذي في «اللسان»: وقال الفراء: «سمعت بعض العرب يقول: منازلهم تتناحر: هذا بنحر هذا؛ أي قبالته».

جالساً حتى يبدو نحره. وقال سليمان التَّيمِيّ: يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك. وقيل: ﴿فَصَلِّ﴾ معناه: واعبد. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِربك وَٱنْحَرْ﴾ يقول: إن ناساً يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله؛ وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لِلَّه. قال ابن العربيّ: «والذي عندي أنه أراد: اعبد ربك، وانحر له، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر، وبالْحَرَى[1] أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخُصوصية من الكوثر، وهو الخير الكثير، الذي أعطاكه الله، أو النهر الذي طِينه مسك، وعدد آنيته نجوم السماء؛ أما أن يوازِيَ هذا صلاة يوم النحر، وذبح كبش أو بقرة أو بَدَنة، فذلك يبعد في التقدير والتدبير، وموازنة الثواب للعبادة». والله أعلم.

الثانية ـ قد مضى القول في سورة ﴿الصَّافات﴾[2] في الأُضحية وفضلها، ووقت ذبحها؛ فلا معنى لإعادة ذلك. وذكرنا أيضاً في سورة ﴿الحج﴾[3] جملة من أحكامها. قال ابن العربي: «ومن عجيب الأمر: أن الشافعي قال: إن من ضحَّى قبل الصلاة أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَصَلِّ لِربكَ وانحرْ﴾، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبيّ ﷺ (في البخاريّ وغيره، عن البراء بن عازب، قال): «أوّل ما نَبْدَأ به في يومنا هذا: أن نُصَلِّيَ، ثم نرجعَ فننحر، من فعل فقد أصاب نُسُكا، ومن ذَبَح قبل، فإنما هو لحم قدّمه لأهله، ليس من النُسك في شيء». وأصحابه ينكرونه، وحبذا الموافقة».

الثالثة ـ وأما ما روي عن عليّ عليه السلام ﴿فصل لِربك وانحر﴾ قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة (خرّجه الدارَقُطْنيّ)، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: **الأوّل** ـ لا توضع فريضة ولا نافلة؛ لأنّ ذلك من باب الاعتماد. ولا يجوز في الفرض، ولا يستحب في النفل. **الثاني** ـ لا يفعلها في الفريضة، ويفعلها في النافلة استعانة؛ لأنه موضع ترخص. **الثالث** ـ يفعلها في الفريضة والنافلة. وهو الصحيح؛ لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل

---

(١) في «اللسان»: (حري): والحري: الخليق، كقولك: بالحري أن يكون ذلك. وإنه لحري بكذا، وحر، وحريّ.
(٢) راجع ١٥/١٠٧ وما بعدها. (٣) راجع ١٢/٤٢ وما بعدها.

ٱبن حجر وغيره. قال ٱبن المنذر: وبه قال مالك وأحمد وإسحاق، وحكي ذلك عن الشافعيّ. وٱستحب ذلك أصحاب الرأي. ورأت جماعة إرسال اليد. وممن روينا ذلك عنه ٱبن المنذر[١] والحسن البصريّ وإبراهيم النخعِيّ.

قلت: وهو مَرْوِيّ أيضاً عن مالك. قال ٱبن عبد البر: إرسال اليدين، ووضع اليمنى على الشمال، كل ذلك من سنة الصلاة.

الرابعة ـ وٱختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروِي عن عليّ بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره. وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل: فوق السرّة. وقال: لا بأس إن كانت تحت السرّة. وقالت طائفة: توضع تحت السرّة. وروي ذلك عن عليّ وأبي هُريرة والنخعيّ وأبي مِجلَز. وبه قال سفيان الثوريّ وإسحاق.

الخامسة ـ وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود، فٱختلف في ذلك؛ فروى الدّارقطنِيُّ من حديث حميد عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يرفع يديه إذا دخل في الصلاة، وإذا ركع، وإذا رفع رأسه من الركوع، وإذا سجد. لم يروِه عن حميد مرفوعاً إلا عبد الوهاب الثقفيّ. والصواب: من فعل أنس. وفي «الصحيحين» من حديث ٱبن عمر، قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه، حتى تكونا حذو منكِبيه، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكَبّر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع، ويقول سمِع الله لمن حمِده. ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود. قال ٱبن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وحكى ٱبن وهب عن مالك هذا القول، وبه أقول؛ لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوريّ وأصحاب الرأي.

(١) في بعض الأصول: «ابن الزبير».

قلت: وهو المشهور من مذهب مالك؛ لحديث ٱبن مسعود، (خرّجه الدّارقطنِيّ من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل). قال: حدّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: صليت مع النبيّ ﷺ ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أوّلاً عند التكبيرة الأولى في ٱفتتاح الصلاة. قال إسحاق: به نأخذ في الصلاة كلها. قال الدّارقطنِيّ: تفرّد به محمد بن جابر (وكان ضعيفاً) عن حماد عن إبراهيم. وغير حماد يروِيه عن إبراهيم مرسلاً عن عبد الله، من فعله، غير مرفوع إلى النبيّ ﷺ؛ وهو الصواب. وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البَرَاء: أنه رأى النبيّ ﷺ حين ٱفتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذِيَ بهما أُذنيه، ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة. قال الدّارقطنيّ: [وإنما][1] لقن يزيد في آخر عمره: «ثُمَّ لَمْ يَعُدْ»؛ فتلقنه وكان قد ٱختلط. وفي (مختصر ما ليس في المختصر) عن مالك: لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة. قال ٱبن القاسم: ولم أر مالكاً يرفع يديه عند الإحرام. قال: وأَحبُّ إليّ ترك رفع اليدين عند الإحرام.

[٣] ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أي مبغِضك؛ وهو العاص بن وائل. وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات، ثم مات البنون وبقي البنات: أبتر. فيقال: إن العاص وقف مع النبيّ ﷺ يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد تُوُفِّي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله ﷺ، وكان من خديجة؛ فأنزل الله جل شأنه: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أي المقطوع ذِكره من خير الدنيا والآخرة. وذكر عكرمة عن ٱبن عباس قال: كان أهل الجاهلية إذا مات ٱبن الرجل قالوا: بُتِر فلان. فلما مات إبراهيم بن النبيّ ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتِر محمد؛ فأنزل الله جل ثناؤه:

(١) الزيادة من الدارقطني.

﴿إنّ شانِئك هو الأبْتَر﴾ يعني بذلك أبا جهل. وقال شِمر بن عطية: هو عقبة بن أبي مُعَيط. وقيل: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده: قد بُتِر فلان. فلما مات لرسول الله ﷺ ٱبنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتِر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدّيّ وٱبن زيد. وقيل: إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة: نحن أصحاب السقاية والسَّدانة والحِجابة واللّواء، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصُّنَيْبِرُ[1] الأُبَيْتِرُ من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خير؛ فنزلت في كعب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِن الكِتابِ يُؤمِنون بِالجِبتِ[2] والطاغوتِ﴾... الآية. ونزلت في قريش: ﴿إن شانِئَك هو الأَبْتر﴾؛ قاله ٱبن عباس أيضاً وعكرمة. وقيل: إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله، ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: ٱنبتر منا محمد؛ أي خالفنا وٱنقطع عنا. فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنهم هم المبتورون؛ قاله أيضاً عِكرمة وشَهْر بن حَوْشَب. قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدوابّ الذي لا ذنب له. وكل أمرٍ انقطع من الخير أثره، فهو أبتر. والبَتْر: القطع. بَتَرْت الشيء بَتْراً: قطعته قبل الإتمام. والانبتار: الانقطاع. والباتر: السيف القاطع. والأَبْتَر: المقطوع الذَّنَب. تقول منه: بُتِر (بالكسر) يُبْتَرُ بَتْراً. وفي الحديث «ما هذه البُتَيراء». وخطب زياد خُطبته البتراء؛ لأنه لم يحمد الله فيها، ولم يصل على النبيّ ﷺ. ٱبن السكيت: الأبتران: العَيْر والعَبْد؛ قال سميا أبترين لقلة خيرهما. وقد أبتره الله: أي صيره أبتر. ويقال: رجل أُباتِرُ (بضم الهمزة): الذي يقطع رحِمه. قال الشاعر:

لَئِيمٌ نَـزَتْ فـي أَنْفِـهِ خُنْـزُوانَـةٌ   على قَطْعِ ذِي القُرْبَى أَحَذُّ أُباتِرُ

والبُتْرية: فِرقة من الزيدية؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر. وأمّا الصُّنبور فلفظ مشترك. قيل: هو النخلة تبقى منفردة، ويدِق أسفلها ويتقشر؛ يقال: صَنْبَرَ أسفلُ النخلة.

(١) في نسخة الصنبور. وسيأتي للمصنف بيان معناه.

(٢) آية ٥١ سورة النساء.

وقيل: هو الرجل الفرد الذي لا ولد له ولا أخ. وقيل: هو مَثْعَب[١] الحوضِ خاصّة؛ حكاه أبو عبيد. وأنشد:

مـــا بيـــن صُنْبـــورٍ إلَـــى الإزاءِ[٢]

والصُّنبور: قَصَبة تكون في الإداوة[٣] من حديد أو رصاص يشرب منها. حكى جميعه الجوهريّ رحمه الله. والله سبحانه وتعالى أعلم.